

الحلّة ونواحيها في انطباعات الرّحالة الإيرانيين
(١٧٩٦-١٩٢٥) : قراءة في المدوّنات والرحلات

أ.د. عاصم حاكم عبّاس الجبوريّ

جامعة القادسيّة /كلية التربية

م.م. محمّد ساجت محول الظالميّ

*Hilla and Its Environs in the Impressions of
Iranian Travelers (1796–1925):
A Reading of Chronicles and Travelogues*

*Prof. Dr. Asim Hakim Abbas Al-Jubouri
University of Al-Qadisiyah / College of Education
Asst. Lect. Mohammed Sajat Mahwal Al-Zalimi*

مخلص البحث

تُعدُّ المدن العراقية من أهمّ الحواضر التي لعبت أدوارًا بارزة في مسيرة التاريخ الإنساني؛ لما تمتلكه من إرث حضاريّ عريق، ساهم في صياغة ملامح الحضارات القديمة والوسيطه. وتأتي مدينة الحِلَّة في مقدّمة هذه المدن؛ لما تحمله من تاريخ طويل يمتدُّ إلى أعماق العصور القديمة.

وتُشكّل كتب الرحّالة مصدرًا مهمًّا لدراسة تاريخ العراق؛ لما تضمّنته من مشاهدات حيّة، ووقائع واقعيّة، دُوّنت عبر الرؤية المباشرة والسماع والملاحظة، ممّا يمنحها قيمة توثيقية عالية.

تناول هذه الدراسة الجوانب الاجتماعيّة والاقتصاديّة لمدينة الحِلَّة، بالاعتماد على ما سجّله الرحّالة الإيرانيون خلال المدّة الممتدّة من عام ١٧٩٦ حتّى عام ١٩٢٥، إذ كانت الحِلَّة محطة رئيسة على طرق المواصلات التي تربط بين شمال العراق وجنوبه، لاسيما على الطريق النهريّ، عبر نهر الفرات، ما منحها أهميّة اقتصاديّة وتجاريّة كبيرة، كما تميّزت المدينة بإرثها الحضاريّ والعمرانيّ، الذي يعكس مظاهر الحياة الاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة السائدة آنذاك، شأنها في ذلك شأن بقيّة المدن العراقيّة الكبرى.

الكلمات المفتاحيّة: الحِلَّة ونواحيها، الرحّالة، المدوّنات والرحلات، الإيرانيون.

Abstract

Iraqi cities represent some of the most significant urban centers that have played pivotal roles in the course of human history, owing to a profound civilizational heritage that helped shape the features of ancient and medieval civilizations. Al-Hilla stands at the forefront of these cities, possessing a long history that extends deep into antiquity.

Travelogues serve as a vital source for studying the history of Iraq, as they contain firsthand accounts and factual events recorded through direct observation, hearing, and witness. This provides these records with high documentary and historical value.

This study examines the social and economic aspects of the city of al-Hilla, based on the records of Iranian travelers during the period from 1796 to 1925. During this era, al-Hilla was a major hub on the transportation routes connecting northern and southern Iraq, particularly via the Euphrates River. This strategic location granted the city immense economic and commercial

importance. Furthermore, the city was distinguished by its architectural and cultural heritage, reflecting the social, cultural, and economic life prevalent at the time, much like other major Iraqi cities.

Keywords: Hilla and its Environs, travelers, travelogues and journeys, Iranians.



المقدمة

تُعَدُّ مدينة الحِلَّة من المدن العِراقِيَّة ذات التاريخ العريق، التي أدَّت دورًا مهمًّا في المسارات الثقافيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة على مرِّ العصور. ومردُّ ذلك إلى عمقها التاريخيِّ، وموقعها الإستراتيجيِّ في وسط العراق، وبوصفها تشكِّل حلقة وصل بين مدنه الشماليَّة والجنوبيَّة، ما منحها أهميَّة كبيرة على الصعيدين الجغرافيِّ والاقتصاديِّ. وقد انمازت المدينة بتنوعها الاجتماعيِّ، وثراء عاداتها وتقاليدها، فضلًا عن مبانيها العمرانيَّة التي تعود إلى عهود تاريخيَّة موهلة في القِدَم.

حظيت الحِلَّة باهتمام واسع عند الرِّحَّالَةِ، سواء العرب، أو الأُجانب، وكان من أشهر من وصفوا المدينة وقصباتها ونواحيها الرِّحَّالَةُ الْإِيرَانِيُّونَ الذين زاروها في عقود مختلفة، ما بين عامي (١٧٩٦-١٩٢٥). وتكتسب كتاباتهم أهميَّة خاصَّة؛ لما حوته من وصف دقيق لمظاهر الحياة اليوميَّة، والأوضاع الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والعمرانيَّة، ولما توفَّره من معلومات ميدانيَّة قيِّمة، تُسهم في توثيق تاريخ المدينة خارج الإطار الرسميِّ أو الحكوميِّ.

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الأوضاع الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والعمرانيَّة لمدينة الحِلَّة ونواحيها، استنادًا لما ورد في كتابات الرِّحَّالَةِ الْإِيرَانِيِّينَ إِبَّانَ المَدَّة المشار إليها.

وقد اعتمدت الدراسة على عدد من المصادر، في مقدمتها كتب الرحالة الإيرانيين بين عامي (١٧٩٦-١٩٢٥)، التي شكّلت الأساس الذي بُني عليه البحث؛ لما تزخر به من معلومات قيّمة عن الواقع الاجتماعي والاقتصادي والعمرائي لمدينة الحلة في تلك المرحلة الزمنية.



المحور الأول

الأوضاع الاجتماعية لمدينة الرحلة في مشاهدات الرحالة الإيرانيين

١٧٩٦-١٩٢٥ م

أولاً: الرحلة مفهومها أهميتها

جاءت كلمة (الرحلة) في اللغة العربية بمعانٍ عدّة، منها: السير، والضرب في الأرض، والترحيل، والإزاحة، ويقال: رَحَلَ الرجل إذا سار، ورجلٌ رَحُولٌ، وقومٌ رَحَلٌ، أي كثيرو الارتحال، ورجُلٌ رَحَالٌ، أي كثير الترحال، وعالم به، ومُجِيدٌ له. كما تُقال: إبِلٌ مَرَحُولَةٌ، أي عليها رحالها، وإِبِلٌ قد وُضِعَتْ عنها رحالها، أي أُعِدَّتْ للنزول والاستقرار. وتلفظ (الرحلة) بالضم يُطلق بمعنى الوجهة أو المقصد. في حين أنّ (الرحلة) بالكسر تدلُّ على الارتحال أو السفر نفسه. ويُطلق لقب (رَحَال)، أو (رحالة) بصيغة مبالغة على الشخص الذي يُكثر من الترحال، وينتقل من بلد إلى آخر، وهي صفة مشتقة من الفعل رَحَلَ، أي سافر أو انتقل^(١).

وتعددت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح، إلّا أنّها كلّها ذات معنى واحد، فعُرِّفت بأنّها «انتقال فرد أو جماعة أو عائلة أو قبيلة أو أمة من مكان إلى آخر؛ لمقاصد وأسباب

(١) محمّد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجري، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٦، ص ٤٠-٤١.

متعددة^(١)، وعرفت أيضًا بوصفها «إنجازًا أو فعلًا فرديًا أو جماعيًا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة، أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الذي تبدأ منه، والمكان الذي تنتهي إليه»^(٢)، وعرفت بأنها مجموعة من الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات الرّحّال عن رحلاته في الأماكن المختلفة، وقد يتعرّض فيها لوصف ما يراه من مشاهدات تخصّ حياة الإنسان من عادات وتقاليد ومأكل وملبس، وما يخصّ الطبيعة من النباتات والحيوانات، ووصف المدن، وغيرها من الملاحظات حول رحلته^(٣).

ويتّضح ممّا تقدّم أنّ مفهوم الرحلة في اللغة والاصطلاح يشتركان في معنى واحد، هو الحركة والانتقال من أجل تحقيق هدفٍ ما.

إنّ نمط كتابة الرحلات فنٌّ مستقلٌّ، زاخرٌ بكثير من المعلومات التي تهّمّ عالم السياسة والمؤرّخ والجغرافيّ وعالم الاقتصاد وعالم الاجتماع، وأهميّتها تتجلى بما تحويه من مادّة علميّة عن تلك النواحي، وتُكتب غالبًا بأسلوب أدبيّ منسّق، وأحيانًا تكون بأسلوب علميّ تقريريّ، لكنّها في كلّ الأحوال لا تخلو من اعتمادها على المشاهدة والسماع في ملاحظة الظواهر، ثم تدوينها، وتعدّ كتب الرحلات من أهمّ مصادر كتابة التاريخ، فهي بعكس جميع المصادر الأخرى، تعتمد على الإدراك المباشر للأحداث، ولا تعتمد على السماع والنقل فقط، ممّا يجعل منها شهادة حيّة للوقائع التاريخيّة^(٤).

(١) بطرس البستانيّ، دائرة المعارف، مجلّد (٨)، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٨٤، ص ٥٦٤.
(٢) صلاح الدين عليّ الشاميّ، الرحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافيّ والدراسة الميدانيّة، ط ١، منشأة المعارف، الإسكندريّة، ١٩٩٩، ص ١١.
(٣) مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب، ط ٢، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٨.

(٤) حسني محمود حسين، أدب الرّحّالة عند العرب، ط ٢، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣، ص ٦-٨، محمّد التوزانيّ، الرحلة الحجازيّة، ط ١، دار النشر المغربيّة، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص ٤-٦.

تتبع أهمية كتب الرحالة من دورها في استكمال الصورة العامة للعرض التاريخي لأي مجتمع في زمان ما، إذ إنَّها تتضمَّن وصفاً دقيقاً ومباشراً لما يتعلَّق بذلك المجتمع من قيم، وعادات، وخصائص اجتماعية وثقافية يصعب على المؤرِّخين العثور عليها في الوثائق الرسمية، أو المصادر التقليدية. فكثير من المعلومات التي وثَّقها الرحَّالة، لا سيما ما يتعلَّق بالعادات والتقاليد اليومية، والمظاهر الاقتصادية، والتوزيع السكاني، والعمران، والمعتقدات، لم تُسجَّل في الوثائق التاريخية الرسمية، بل نُقلت بالمشاهدة المباشرة والانطباعات الشخصية لهؤلاء الرحالة. لذلك، فإنَّ ما دوَّنه الرحَّالة عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والآثارية والجغرافية يُعدُّ ثروة تاريخية وأدبية ذات فائدة عظيمة، ومصدراً من أوثق المصادر التي يعتمد عليها الباحثون. ورغم تنوع أهداف الرحَّالة، واختلاف دوافعهم، سواء كانت دينية أو سياسية أو تجارية أو استكشافية، إلَّا أنَّهم جميعاً يشتركون في هدف رئيس، وهو التوغُّل في أعماق المجتمعات التي زاروها، وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عنها، ممَّا يجعل كتاباتهم مادةً غنيةً للدارسين في مختلف الحقول المعرفية^(١).

وتكمن أهمية كتب الرحلات في ما تحمله من الملاحظات والتحليلات والنقد، في حين تقتصر كتب التاريخ على الاهتمام بالزمان والمكان، وما يدور فيها من أحداث، فضلاً عن أنَّها تُقدِّم معلومات ومرويات موثقة نتجت من خلال المشاهدة المباشرة للرحَّال، أو الأخذ من الرواة الثقات^(٢)، برغم أنَّ كتب الرحلات تتضمَّن الكثير من

(١) عليّ عفيفيّ عليّ غازي، كتابات الرحَّالة حول مجتمع البدو في العراق والجزيرة العربية، ط ١، دار قنديل، دبي، ٢٠٢٠، ص ٧٤.

(٢) عمران بن محمَّد الأحمد، أدبيَّة الرحلة عند العبوديِّ رحلاته إلى البرازيل نموذجاً، أطروحة دكتوراه، كليَّة اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، جامعة القصيم، السعودية، ٢٠١٥، ص ٥٥-٥٦.

الحقائق والمعلومات القيّمة، إلا أنّها لا تخلو من الانطباعات الشخصية والانفعالات التي تُملئها الظروف المحيطة بالرحّالة، والمواقف التي يمرُّ بها في أثناء تجواله، ممّا يجعل رؤيته في بعض الأحيان ذاتيةً ومتأثرةً بخلفيته الثقافية والدينية. ويكمن الفرق الأساسي بين المؤرّخ والرحّالة في أنّ المؤرّخ غالباً ما يستقي معلوماته من الوثائق والمستندات والمصادر المكتوبة، في حين أنّ الرحّالة يعتمد في تدوينه على الملاحظة المباشرة، والتجوال، والتأمّل، والاستماع، والمشاهدة الحية، وهو ما يمنح كتاباته طابعاً حياً ومباشراً يصعب العثور عليه في كثير من المؤلفات التاريخية التقليدية. ومن الجدير بالذكر أنّ كثيراً من الرحّالة لم يكونوا يدركون أهمية ما يكتبونه لحظة التدوين، إذ كانت غايتهم أحياناً لا تتعدّى التوثيق الشخصي أو التسلية أو أداء مهمة دبلوماسية أو دينية، إلا أنّ مرور الزمن أضفى على هذه الكتابات قيمة تاريخية متزايدة؛ لما تحتويه من معلومات فريدة عن الحياة اليومية، والطبقات الاجتماعية، والعادات، والطقوس، والعمران، وهي أمور قد لا تتوفر في المصادر التاريخية الأخرى، ممّا يجعل من كتب الرحلات مصادر لا غنى عنها لدراسة تاريخ المجتمعات المختلفة في فترات زمنية معيّنة^(١).

اجتذبت أرض العراق منذ أقدم العصور التاريخية اهتمام العديد من الرحّالة والمؤرّخين، الذين حرصوا على زيارة مناطقه المختلفة، وتسجيل مشاهداتهم، وذلك لما يتمتع به من شهرة واسعة، وصيت حضاري عريق، كونه مهذاً من مهود الحضارات الإنسانية الأولى، وموطناً للعديد من الآثار القديمة، فضلاً عمّا ورد عنه من إشارات وأحداث في الكتب السماوية المقدّسة^(٢).

(١) منصور الحازمي، بلادنا في عيون الرحّالة العرب، ط ١، مكتبة الأمانة العامة للاحتفالات في

الرياض، الرياض، ١٩٩٩، ص ١٨.

(٢) سهيل قاشا، الموصل في مذكرات الرحّالة الأجانب خلال الحكم العثماني، ط ١، دار الوراق

للنشر، بغداد، ٢٠٠٩، ص ٧.

واكتسب العراق أهميّة خاصّة نظرًا لمزاياه الاقتصادية، إذ امتاز بخصوبة أرضه، وتنوّع محاصيله الزراعيّة، ووفرة مياهه من الأنهار، لاسيّما دجلة والفرات، ما جعله بيئة جاذبة للاستقرار والإعمار. وإلى جانب ذلك، يتمتّع العراق بموقع جغرافيّ إستراتيجيّ، يتوسّط الأقاليم والبلدان المجاورة، ويُشكّل حلقة وصل بين الشرق والغرب، ما جعله معبراً مهمّاً للقوافل والمسافرين. وقد كانت الحوادث التاريخيّة التي شهدتها أرض العراق عبر العصور، من الغزوات، والتغيّرات السياسيّة، والنهوض الحضاريّ، عاملاً مؤثراً ليس فقط في حياة العراقيّين، بل في مسيرة شعوب العالم أجمع، الأمر الذي زاد من فضول الرحّالة للقدوم إليه، والتدوين عنه، ونقل صور حيّة عن أوضاعه الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة^(١).

ثانياً: مدينة الحلّة تشكّلها وتركيبتها السكانيّة في نظر الرحّالة الإيرانيّين

حظيت مدينة الحلّة ونواحيها بشهرة تاريخيّة واسعة منذ العصور الأولى، ويعود ذلك إلى ما تضمّه من معالم أثرية وشواهد حضاريّة بارزة، متجذّرة في تاريخ بابل القديمة، التي كانت إحدى أمهات الحضارات البشريّة. وتزداد أهميّة المدينة بسبب موقعها الجغرافيّ المتميّز على ضفاف نهر الفرات، الذي يشكّل شرياناً يربط بين مدن العراق الشماليّة والجنوبيّة، ممّا جعلها مركزاً حضاريّاً وتجاريّاً مهمّاً على مرّ العصور.

وقد ورد ذكر مدينة الحلّة ومعالمها في العديد من المؤلّفات العربيّة والأجنبيّة، وحرص عدد كبير من الرحّالة على زيارتها وتسجيل مشاهداتهم عنها، فقد تناولوا

(١) كارستن نيبور، رحلة نيبور الكاملة إلى العراق، ترجمة: سعاد هادي العمريّ وآخرون، تعليق:

سالم الآلوسيّ، ط ١، دار الوراق للنشر، بغداد، ٢٠١٢، ص ١١.

في وصفهم السكّان، وطبائعهم، ومستوى وعيهم، وأسلوب حياتهم، إضافة إلى ملاحظاتهم حول العمران، والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

ويُعدُّ ما دوّنه هؤلاء الرّحّالة، ولاسيما الرّحّالة الإيرانيين، عن مدينة الحِلّة وتوابعها، ثروة تاريخية ذات فائدة كبيرة، ومصدرًا موثوقًا يُعين الباحثين في إعادة بناء صورة واضحة عن ماضي المدينة. ومن بين أبرز مَنْ زار الحِلّة ودوّن عنها، الرّحّالة أبو طالب خان، الذي زارها عام ١٨٠٣ م، حيث وصفها بأنّها: «مدينة عتيقة ومشهورة، وكانت مقامًا لسلاطين من قبيلة بني مزيد في عصر الخلافة العباسية، وهي راكبة نهر الفرات، ويقسمها النهر إلى قسمين، حيث يقطن الباشا وكبار الموظّفين في القسم الغربي القريب من الصحراء». هذا الوصف يعكس الأهمية السياسية للمدينة في ذلك العصر، إضافة إلى دلالات واضحة على الطبقية الاجتماعية، وتقسيم الفضاء الحضري داخلها، ممّا يجعل مثل هذه المشاهدات مادةً بالغة الأهمية في فهم تطوّر الحِلّة عمرانيًا وسكانيًا^(١).

ومن بين الرّحّالة الذين وصفوا مدينة الحِلّة خلال القرن التاسع عشر، يبرز الرّحّالة المنشيء البغدادي، الذي زار المدينة عام ١٨٢٢ م، فوصفها بأنّها: «بلدة قديمة وجميلة جدًّا، تقع على نهر الفرات، ويبلغ عدد بيوتها نحو ثمانية آلاف بيت، منها مئة بيت يسكنها اليهود، ولذلك فإنّ سكّان المدينة يشكّلون خليطًا من العرب واليهود». ويبرز هذا الوصف التنوّع الاجتماعي الذي كانت تتمتع به مدينة الحِلّة في تلك المدّة، حيث المجتمعات الدينية المختلفة في نسيج واحد، وكذلك أشار الرّحّالة إلى الصفات الأخلاقية لسكّان المدينة، إذ امتازوا، بحسب تعبيره، بـ«الشجاعة، وإكرام الغريب»،

(١) أبو طالب بن محمّد خان، رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوروبا، ترجمة: مصطفى جواد، ط١، دار الورّاق للنشر، بغداد، ٢٠١١، ص ٢٧٥-٢٧٦.

وهي سمات لطالما ميّزت سكّان مدن الفرات الأوسط. وتناول المنشئ البغدادي أيضًا أحد نواحي الحِلّة، بلدة ذي الكفل الواقعة قربها، واصفًا إيّاها بأنّها: «قلعة صغيرة، ومعبد لليهود، يقصدونه للزيارة من أنحاء عديدة». ويشخّص في رحلته البعد الديني والروحي لهذه المنطقة، وكونها محطة مهمّة لدى الطائفة اليهوديّة، ما يعكس استمرار الأهميّة الرمزيّة والتاريخيّة للمواقع الدينيّة الواقعة في محيط الحِلّة، ليس فقط لدى المسلمين، بل لدى أتباع ديانات أخرى أيضًا.

وقدّم الرحّالة سيف الدولة، الذي زار المنطقة عام ١٨٦٣م، وصفًا دقيقًا وثرًا لمدينة الحِلّة ومحيطها، مشيرًا إلى أنّها من المدن المشهورة، وتقع ضمن أراضي بابل التاريخيّة، على ضفتي نهر الفرات. وأشاد بجودة مناخها وهوائها النقيّ، موضّحًا أنّ سكّانها من العرب واليهود، وأنّهم يتميّزون بـ«العطف، والفقر، وراحة البال، وجمال الوجوه»، بحسب تعبيره. وأشار كذلك إلى وجود عدد من المراقد لعلماء الدين في المدينة، إضافة إلى وجود مقر للحكومة العثمانيّة، والجيش، ووحدة مدفعية عثمانيّة، ما يدلّ على مكانة المدينة الإداريّة والعسكريّة في تلك الحقبة. ومن المعالم الأثرية التي لفتت انتباهه، تل النمرود، والذي وصفه بأنّه: «تلّ عالٍ يمكن رؤيته من مكان بعيد، وعلى قمّته برج مبني من الطابوق، وله سرداب». وأضاف أنّ البعثات الفرنسيّة والإنكليزيّة قد قامت بأعمال حفر وتنقيب فيه، وعثرت على صخور منقوشة بالرسوم والكتابات غير المقروءة، وقاموا بنقلها معهم، في إشارة إلى الاهتمام الأوروبيّ بالآثار العراقيّة في القرن التاسع عشر. كما شمل وصفه بلدة طويريج (الهنديّة حاليًا)، وهي من نواحي الحِلّة أيضًا في تلك المدّة، والواقعة على نهر الهنديّة المتفرّع من الفرات، وذكر أنّها: «مدينة مبنيّة على الطراز العربيّ، لكنّها جميلة جدًّا، ذات هواء لطيف، وسكّانها كثيرون». وأوضح أنّ سكان طويريج جميعهم من أصول ريفيّة، وينحدرون من قبائل



عرب الحوزية، وقد استقرُّوا في البلدة قبل نحو ستين عامًا من زمن زيارته. وذكر أنَّهم جميعًا مسلِّحون ويعملون في الزراعة، ممَّا يدلُّ على طبيعة المجتمع القبليِّ الزراعيِّ الذي ساد المنطقة^(١).

زار ناصر الدين شاه القاجاريّ عام ١٨٧٠ منطقة المسيّب، وهي أيضًا من نواحي الحِلَّة في تلك المدَّة، خلال إحدى رحلاته إلى العراق، ودوّن وصفًا مقتضبًا لها، إذ أشار إلى أنَّها: «قرية تقع على نهر الفرات، وتبعد عن بغداد بمقدار تسعة فراسخ». ولفت إلى اتِّساع نهر الفرات عند هذه النقطة، موضِّحًا أنَّ: «النهر عريض جدًّا، وجريانه واضح وقويّ، ويحمل معه الطين، بخلاف نهر دجلة في بغداد الذي يتميِّز بصفاء مائه». ويظهر هذا الوصف الاهتمام الجغرافيِّ والطبيعيِّ الذي أبداه الرِّحالة الإيرانيُّون تجاه الأنهار وخصائصها البيئية، كما يكشف عن إدراكهم لفروقات طبيعيَّة بين الأقاليم، ما يعكس خلفيَّة علميَّة نسبيَّة في تدوين المشاهدات^(٢).

ووصف الرِّحالة عبد الحسين خان أفشار (١٨٨٢)، مدينة المحموديَّة بأنَّها منطقة جميلة تكثر فيها الأشجار المثمرة، وتقع على بُعد خمسة فراسخ من المسيّب. ويبلغ عدد عوائلها حوالي مئة عائلة، وتضمُّ العديد من محالِّ الاستراحة التي تخدم الزائرين. كما أكَّد الرِّحالة على كرم أهلها، واحترامهم للغريب، وحرصهم على تقديم الخدمات للزائرين^(٣).

(١) محمَّد سلطان سيف الدولة، سفرنامه سيف الدولة (يسفر نامه مكة)، تصحيح وتحشية: عليّ أكبر خدابست، جاب أول، جابخانة معراج، تهران، ١٣٨٩ش، ص ٢٤٧-٢٤٨.
(٢) العراق في مشاهدات ناصر الدين شاه، ترجمة وتعليق: محمَّد الشيخ هادي الأسديّ، ط ١، مؤسَّسة آفاق، بغداد، ٢٠١١، ص ١٥٠-١٥١.
(٣) عبد الحسين خان أفشار الروميّ، سفرنامه مكة، به كوشش: رسول جعفریان، جاب أول، نشر علم، تهران، ١٣٨٦ش، ص ٧٨.

وأكد ذلك الرحّالة محمّد حسين هروي (١٩٠٦)، بقوله: «إنّ مدينة المحموديّة تقع على الطريق الرابط بين بغداد وكربلاء، والطريق إليها مستوٍ ومعبدٌ، وعليه عدد من محالّ الاستراحة التي تحيط بها بيوت الأعراب الذين يهرعون لتقديم الخدمات للنازلين فيها، وعدد عوائلها ستمائة عائلة»^(١).

في حين وصف الرحّالة فخر الدين جزئري (١٩٢١)، مدينة الحلّة بأنّها مدينة كبيرة وجميلة، وتشبه إلى حدّ ما مدينة بغداد، إذ إنّ نهر الفرات يُمّر في وسطها، وهو مثير للاستغراب بسرعة جريانه ومائه المخلوط بالطين والرمل، وتحيط بالمدينة البساتين من جميع جهاتها، وسكّانها خليط من العرب واليهود، ونسبة قليلة من الهنود^(٢).

ورصد الرحّالة كيكافوس ميرزا عام ١٨٣٦م في رحلته إلى مدينة المسيّب الدور الفاعل والمستمر للمرأة العراقية في دعم الرجل وأداء مسؤوليّات الأسرة، إذ كتب عند دخوله المدينة، ورغبته في زيارة مقام أولاد مسلم بن عقيل عليه السلام: «كانت المدينة محاطة بمزارع وأشجار كثيفة، وتقع بيوت العرب وسط هذه الخضرة. ولاحظنا أنّ نساء المدينة يلعبن دورًا كبيرًا في إدارة بيوتهنّ». ووصف النساء في أثناء أداء مناسك الزيارة بأنهنّ: «قدّمن لنا المواد الغذائية والماء، حاملة معهنّ أطفالهن، وكنّ في غاية الجمال، يتّسم كلامهنّ بالوقار والحشمة». وأضاف إنهنّ: «بسيطات الطباع، يتصرّفن بسجيّة طبيعيّة مع الجميع، ويقبلن بالقليل». ويعكس هذا الوصف اهتمام الرحّالة بتوثيق الصورة الاجتماعية للمرأة في المجتمع العراقيّ، مشيرًا إلى الاحترام والوقار الذي تتمتع به النساء في تلك البيئة، بالإضافة إلى دورهنّ الداعم والمساند في الحياة

(١) محمّد حسين خان هروي، سفرنامه خان افغان (بنج سفرنامه يا سفر به اقليم عشق)، تحقيق

وتصحيح: خليل طاووس، جاب أول، نشر مجمع ذخائر اسلامي، قم، ١٣٩٣ش، ص ٣٨١.

(٢) فخر الدين جزئري، سفرنامه مكة شام مصر - عراق (سفرنامه هاي حج قاجاري)، به كوشش:

رسول جعفریان، جلد هشتم، جاب أول، نشر علم، تهران، ١٣٨٩ش، ص ١٨٠-١٨١.

اليوميّة^(١). ومما تقدّم يؤكّد أنّ المرأة يقع عليها العبء الأكبر في إدارة البيت، فبالإضافة إلى تربية الأطفال، ومتطلّبات البيت، تقوم بالزراعة وتربية الحيوانات، وهي أعمال تتطلّب قوّة ومشقّة كبيرة.

أشار الرحّالة الإيرانيون في كتاباتهم إلى المعالم العمرانيّة المهمّة في مدينة المسيّب، ولاسيما الخانات، وجسر المسيّب، اللذين مثلاً دوراً حيويّاً في تسهيل حركة المواصلات والرحلات بين المدن. فقد ذكروا أنّ الطريق الرابط بين بغداد والحلّة يضمّ عدداً من الخانات التي كانت محطات استراحة أساسيّة للمسافرين، إذ ساهمت هذه الخانات في استمرار رحلة التنقّل بين المدن بسهولة ويسر. ومن بين هذه الخانات، برز خان الإسكندرّيّة بوصفه واحداً من أهمّ الخانات، إذ يقع في منتصف الطريق بين بغداد والحلّة، وكان يعدّ محطة رئيسة لاستراحة المسافرين والزوّار القاصدين العتبات المقدّسة. وقد كان لجسر المسيّب دور بارز في ربط ضفتي نهر الفرات، ممّا سهّل حركة التجارة والتنقّل، وعزّز من أهميّة المدينة كمركز عبور إستراتيجي^(٢)، وتحدّث عنه الرحّالة المنشيء البغداديّ (١٨٢٢)، بأنّه يبعد عن مدينة بغداد بثمانية فراسخ^(٣)، وسمّي بالإسكندرّيّة على اسم نهر يخرج من نهر الفرات ويمرّ إلى المزارع ليسقيها، وتحيط به عدد من بيوت الأعراب^(٤)، ومن الخانات الأخرى التي تقع على هذا الطريق خان زاد، وعن

(١) كياوس ميرزا، سفر نامه مكة، به كوشش: رسول جعفریان، جاب أول، نشر علم، تهران، ١٣٩٤ ش، ص ٥٦.

(٢) عليّ كامل حمزة، خانات الحِلّة في العهد العثمانيّ، ط ١، مطبعة الصادق، بابل، ٢٠١١، ص ٧.
(٣) الفرسخ: كلمة مأخوذة من الأصل الفارسيّ من لفظ (فرسنگ)، وهي وحدة قياس الطول، وتساوي تقريباً (٥,٧٥) كيلو متر. للمزيد ينظر: مجد الدين محمّد بن يقوب الفيروزآباديّ، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسّسة الرسالة، ط ٦، مؤسّسة الرسالة، دمشق، ١٩٩٨، ص ١٠٥٨.

(٤) المنشيء البغداديّ، المصدر السابق، ص ٩٠.

المسافة بينه وبين مدن الكاظمية والمسيب وخان بئر يونس، يتطرق إليها الرحالة عبد العلي خان (١٨٥٦)، إذ يقول: «عند مغادرتنا مدينة بغداد مع طلوع الفجر متوجهين إلى كربلاء، وبعد مسير وصلنا إلى رباط خان زاد، ويبعد عن مدينة الكاظمية مسافة خمسة فراسخ، وفيه نزلنا وبتنا ليلتنا، ويبعد عن المسيب مسافة خمسة فراسخ، وكل فرسخين يوجد محل للاستراحة والتوقف، ويبعد عنه خان بئر يونس فرسخين»^(١)، في حين وصف الرحالة سيف الدولة (١٨٦٣)، خان زاد، بأنه عبارة عن بناء تملؤه القذارة والأوساخ، وهو صغير الحجم، ويبعد عن الكاظمية مسير ست ساعات، ومقابلته خان كبير، لكنه غير مكتمل البناء، وماء خان زاد يُجلب من بئر مالحة، ومن أراد الماء الحلو عليه أن يشتريه من العرب الذين يجلبونه من النهر، إذ تسكن عدد من العوائل العربية إلى جانبه لتلبية حاجات النازلين فيه^(٢).

تعد مدينة المسيب من المدن العراقية التي تميّزت بمعلم عمراني بارز، وهو جسر المسيب، الذي أُقيم على نهر الفرات ليربط بين ضفتي المدينة. وقد شكّل هذا الجسر المعبر الرئيس لحركة المسافرين القادمين من بغداد وسائر المدن العراقية باتجاه كربلاء، الحلة، النجف، وغيرها من المدن ذات الطابع الديني والاقتصادي، وبالعكس. وقد حظي هذا الجسر باهتمام خاص في كتابات الرحالة الإيرانيين، الذين دونوا مشاهداتهم وانطباعاتهم عن الجسر وطبيعته ووظيفته، فضلاً عن العاملين عليه. وفي هذا السياق، أشار الرحالة المنشيء البغدادي في عام ١٨٢٢م إلى أن: «مدينة المسيب تقع على جانب نهر الفرات، ويقام عليها جسر ممدود، يُستخدم للعبور إلى مدينة كربلاء، التي تبعد عن المسيب مسافة خمسة فراسخ». وتبرز هذه الإشارة أهمية الجسر كمفصل حيوي في

(١) عبد العلي خان (أديب الملك)، سفرنامه أديب الملك (دليل الزائر)، تصحيح: مسعود

كلزاري، جاب أول، انتشارات دادجو، تهران، ١٣٦٦ش، ص ١٤٠.

(٢) سيف الدولة، همانجا، ص ٢٢٥.

شبكة النقل والمواصلات في العراق آنذاك، ودوره في ربط المراكز الحضريّة والدينيّة، ممّا يعكس مكانة المسيّب الإستراتيجية في تنقل الزوّار والتجّار والرحّالة على حدّ سواء^(١). وفي إطار وصف الرحّالة الإيرانيّين لمعالم مدينة المسيّب، أشار الرحّالة رضا قلي ميرزا خلال زيارته عام ١٨٣٦ م، إلى أهميّة المدينة وموقعها الجغرافيّ على نهر الفرات، إذ أوضح أنّ: «مدينة المسيّب تقع على ضفاف نهر الفرات، وينقسم نهرها إلى شطرين يربط بينهما جسر يُعرف باسم جسر المسيّب، وهو جسر خشبيّ قامت بتشبيده السلطة العثمانية». وأضاف في وصفه للجسر بأنّ: «على الجسر يجلس عدد من الأفراد الموكّلين من قبل الحكومة العثمانيّة، لا يسمحون بمرور الأشخاص أو الحيوانات ودواب الحمل، إلّا بعد دفع رسوم ماليّة تُفرض مقابل العبور». وتعكس هذه الملاحظة، ليس فقط الجانب العمرانيّ والبنويّ للمدينة، بل تكشف أيضًا عن الطيّعة الإداريّة والتنظيميّة التي كانت تمارسها السلطات العثمانيّة في المدن العراقيّة، من خلال فرض الجبايات وتنظيم المرور، وهو دليلٌ على أهميّة الجسر كمرفق حيويّ، ووسيلة تحكّم في حركة النقل والتجارة^(٢).

وقد أكّد الرحّالة كيكائوس ميرزا، خلال رحلته عام ١٨٣٦ م، ما أورده غيره من الرحّالة حول الإجراءات الإداريّة التي كانت تُمارس على جسر المسيّب، مشيرًا إلى وجود مأمور رسميّ يعيّنه السلطان العثمانيّ، يتولّى تنظيم عمليّة عبور المسافرين والدواب. فقد ذكر أنّ: «المأمور الذي يقف على الجسر يتقاضى مبلغ قمري واحد عن كلّ مسافر، وقمريّين عن كلّ دابة محمّلة، كرسوم لعبور الجسر، ولا يُسمح لأحد بالمرور دون دفع تلك الرسوم». ويؤكد هذا الوصف أنّ الجسر لم يكن مجرد ممر عبور، بل كان

(١) المنشى البغداديّ، المصدر السابق، ص ٩٧.

(٢) رضا قلي ميرزا، سفر نامه رضا قلي ميرزا نواه فتحعلي شاه، جاب أول، انتشارات دانسكاه تهران، تهران، ١٣٤٦ ش، ص ١٧٨.

أيضاً نقطة رقابة وجباية تمارس بها الدولة العثمانية سلطتها الإدارية والمالية، مما يدل على الأهمية الاقتصادية والتنظيمية للبنى التحتية في تلك الحقبة، لاسيما في المدن التي تربط بين المراكز الدينية والتجارية الحيوية في العراق^(١)، في حين اشار الرحالة سيف الدولة (١٨٦٣)، بأن جسر المسيب المنسوب على نهر الفرات، لا يمكن عبوره في الأيام التي يرتفع فيها منسوب المياه^(٢).

وأعطى الرحالة عبد الحسين خان أفسار (١٨٨٢)، معلومات دقيقة عن الجسر وأبعاده وعدد قواربه، إذ يقول: «تحرّكنا من كربلاء قاصدين الكاظمية، وقبل الغروب وصلنا إلى المسيب التي يشطرها نهر الفرات إلى شطرين، الشطر الذي باتجاه بغداد فيه العمران مزدهر، أما الجانب الآخر الذي يقع باتجاه كربلاء، بنو فيه محلاً لاستراحة القوافل (خان)، وإلى جانبه البيوت والمسجد، ونصب على نهر الفرات جسر عرف لدى الأهالي باسم جسر المسيب، ويبلغ طوله مائة ذراع، وعرضه خمسة أذرع تقريباً، ويتألف الجسر من ست وعشرين قارباً بين جانبي النهر، والمسافة بين قارب وآخر ذراعين، وورسفت فوقها ألواح من الخشب؛ ليتسنى العبور عليه بسهولة، وربطت القوارب بسلسلتين على جانبي الجسر، تصل بين ضفتي النهر^(٣).

وفيما يتعلق بتعامل المأمورين المكلفين من قبل السلطة العثمانية بإدارة جسر المسيب، وتنظيم حركة العبور عليه، يذكر الرحالة بير زادة في زيارته للمنطقة عام ١٨٨٧م، أن الإجراءات الإدارية كانت صارمة، وأحياناً تعسفية، وقد أثارت استياء المسافرين. فقد أشار إلى أن: «عددًا من الأفراد يقفون على الجسر، بتكليف من السلطة العثمانية، لتنظيم العبور، وقد أوقف المأمور كل دابة كانت محملة، ومنعها من عبور الجسر برغم دفع

(١) كيكوس ميرزا، همانجا، ص ٥٧.

(٢) سيف الدولة، همانجا، ص ٢٢٦.

(٣) عبد الحسين خان أفسار الرومي، همانجا، ص ٢٤٨.

الرسوم المقررة، واشترط على المسافرين إنزال المحامل والأمتعة على الضفة، لتجتاز الدابة بمفردها، ثم يُعاد تحميلها من جديد بعد نقل الأمتعة عبر الجسر بواسطة الحمالين». وقد أثار هذا الإجراء سخط المسافرين؛ لما سببه من ازدحام وتكدس للمحامل على الضفة النهر، إضافة إلى الرسوم الإضافية التي فُرضت عليهم مقابل خدمات الحمالين. وتكشف هذه الرواية عن جوانب من التعقيد الإداري، والمعوقات اللوجستية التي كانت ترافق حركة النقل بين المدن، وتسلب الضوء على التحديات اليومية التي كان يواجهها المسافرون، برغم بساطة وسائل النقل في ذلك العصر^(١). وعن أهمية الجسر وحيويته، ذكر الرحالة محمود عبد الكريم (١٨٨٧)، أن جسر المسيب المنسوب على نهر الفرات في منطقة المسيب ذو أهمية كبيرة لعامة الناس، وللسلطة العثمانية، إذ إنه يعدّ المعبر الوحيد الذي يربط بغداد والمناطق المجاورة لها بمناطق العتبات المقدسة كربلاء والنجف والمناطق المجاورة لها، لذا فهو مزدحم بالعابرين عليه على مدار النهار، وغالبًا ما تتعرض بعض أجزائه إلى الخراب والانهار، لذلك يغلق، ويقومون بترميمه وإعادةه إلى وضعه الطبيعي^(٢).

في حين تطرقت الرحالة علوية كرمان (١٨٩١)، إلى المبالغ التي تستوفى من العابرين على جسر المسيب، إذ تشير إلى أن الأفراد الذين يقفون على الجسر لا يسمحون لأيّ دابة من العبور إلا بعد أن يدفع صاحبها المبلغ المقرر، فتقاضوا مبلغًا مقداره قمرين ونصف عن كلّ دابة^(٣).

(١) محمد علي بير زاده، سفرنامه حاجي بير زاده، به كوشش: حافظ فرما نفر مائيان، جلد دوم، جاب أول، انتشارات دانشگاه تهران، تهران ١٣٤٣ ش، ص ٣١٧.

(٢) عبد المجيد محمود عبد الكريم، سفرنامه مكة وعتبات، به كوشش، سعيد حسيني، جاب أول، نشر مشعر، تهران، ١٣٩٩ ش، ص ٦٨.

(٣) حاجيه خانم علوية كرمان، روزنامه سفر حج عتبات عاليات، به كوشش: رسول جعفریان، =

يتّضح جلياً إهمال السلطة العثمانيّة، وعدم تقديمها الخدمات العامّة للمجتمع، في مناطق الوسط والجنوب من المدن العراقيّة، بعدم تشييد جسر جديد على نهر الفرات في منطقة حيويّة كالمسيّب؛ لفكّ ازدحام المسافرين عند الجسر، وهذا ما أشار اليه الرحّالة إبراهيم كازروني (١٨٩٩)، إذ يقول: «بعد أن تحرّكنا من المحموديّة، سرنا لمسافة معيّنة حتّى وصلنا إلى المسيّب، وفيها جسر ليس بذات العرض، وهو مكتظّ بالمسافرين، ويصعب عبوره بسهولة إلّا بعد انتظار طويل، إذ يقف عليه أشخاص أشدّاء في تعاملهم مع المسافرين، ولا يسمحون لأحد بالعبور حتّى يدفع المبلغ المقرّر على دابّته وأمتعته، هذه الإجراءات أدّت إلى تدمّر بعض المسافرين، وحدوث المشاكل»^(١).

وقد أشار مؤلّف مجهول في رحلة العتبات (١٨٩٩) إلى شدّة الازدحام والإجراءات المتّبعة على جسر المسيّب، مؤكّداً ما سبق ذكره من تعقيدات إداريّة وازدواجيّة في تطبيق القوانين. ففي أثناء رحلته من بغداد إلى المسيّب، توفّي أحد مرافقيه، وعند وصولهم إلى الجسر وجدوه مكتظّاً بالمسافرين، ما اضطرّهم إلى التوقّف عدّة ساعات بانتظار دورهم في العبور. ويوضّح الكاتب أنّ الأفراد القائمين على إدارة الجسر كانوا يتقاضون رسوماً ماليّة من كلّ شخص، ويمنحونه تذكرة مرور، إلّا أنّهم رفضوا السماح بمرور الجنازة التي كانت بصحبته، برغم دفع الرسوم النظاميّة. وبعد تأخير دام ساعة كاملة، اضطروا إلى دفع رشوة سرّيّة للسماح بمرور الجنازة نحو كربلاء. وتعكس هذه الحادثة بوضوح مدى البيروقراطيّة والتعقيد الإداري في التعامل مع المسافرين، إلى جانب تفسّي ظاهرة الرشوة كوسيلة لتجاوز القوانين، أو تسريع الإجراءات، حتّى في الحالات الإنسانيّة، الأمر الذي يعكس ضعف الرقابة الإداريّة، وغياب الحسّ الإنساني في التعامل مع

=جانب اول، نشر مؤرخ، قم، ١٣٨٤ ش، ص ٩٢.

(١) مله ابراهيم كازروني، سفرنامه مكة (سفرنامه هاي حج قاجاري)، جلد ششم، ص ٢١٩.

الحوادث الطارئة^(١)، ويمكن أن يُستدلَّ من هذا التشدُّد في الإجراءات، كما وصفه الرَّحَّالَة، على أنَّ الفساد الإداريَّ كان متفشِّياً بين الأفراد القائمين على إدارة الجسر، إذ يبدو أنَّ الهدف من فرض هذه التعقيدات اللوجستية لم يكن تنظيمياً بحثاً، بل وسيلة للحصول على مبالغ مالية إضافية خارج نطاق القوانين الرسمية المعتمدة من الدولة العثمانية، وهو ما يفهم من إجبار المسافرين على دفع أجور إضافية للحاملين، برغم تسديدهم الرسوم المقررة. ومن جانب آخر، تكشف هذه الحادثة عن غياب الاهتمام بالمعايير الصحية العامة، خصوصاً في التعامل مع المسافرين والحمولات البشرية. ففي حال وجود متوفِّيٍّ على أحد المحامل، فكان يفترض بالسلطات اتِّخاذ احتياطات صحيَّة خاصَّة، خشية من انتقال الأمراض المعدية إلى المجتمع، خاصَّة في ظلَّ الجهل بالإجراءات الوقائية، وضعف النظام الصحيِّ في ذلك الوقت. وبدلَّ ذلك على قصور واضح في وعي المسؤولين بأهميَّة الصحة العامة، الأمر الذي كان يؤدي إلى انتشار الأوبئة بين السكَّان.

وصف الرَّحَّالَة حسين خان مهاجراني في رحلته عام ١٩٠٤، جسر المسيب بأنَّه يتكوَّن من طوَّافات خشبيَّة عائمة على سطح الماء، رُبِطت بإحكام وورصفها بألواح خشبيَّة لتشكل ممراً للمسافرين. وأشار إلى أنَّ الجسر يفتقر إلى السياج والدعائم الثابتة التي تضمن سلامته، ممَّا جعله يشكِّل خطراً حقيقياً على أرواح العابرين، ولاسيَّما في ظلَّ الازدحام الشديد الذي يشهده بشكل دائم. كما لفت إلى أنَّ القائمين على إدارة الجسر كانوا يتقاضون رسوماً مقدارها قمرين عن كلِّ عربة تمرَّ عليه. ويبرز هذا الوصف بُعدين مهمَّين: الأوَّل القصور الفنيِّ والمعماريِّ في إنشاء الجسور خلال تلك الحقبة، والثاني البعد الاقتصاديِّ المتمثِّل بفرض الرسوم على العبور، والذي كان

(١) ناشناس مؤلف، سفرنامه عتبات وحج (سفرنامه هاي حج قاجارى)، جلد ششم، ص ٧١٤.

يُستخدم كمصدر دخل للسلطات العثمانية أو المشرفين المحليين، وإن كان ذلك أحياناً على حساب سلامة المسافرين وراحتهم^(١). وأشار الرخّالة أحمد هدايتي في رحلته عام ١٩١٩ إلى عدم قدرة جسر المسيّب على تحمّل الأوزان الثقيلة، وذكر أنه بعد إتمام زيارة مدينة كربلاء، توجّه برفقة المسافرين إلى مدينة الكاظمية بواسطة إحدى عربات شركة النقل، وعند الوصول إلى جسر المسيّب، توقّفت العرب، إذ لم يكن الجسر يتحمّل مرور العربات الثقيلة، ولذلك، وفّرت الشركة عربات بديلة تقف على الضفة الأخرى من الجسر، ممّا اضطرّ المسافرين إلى نقل أمتعتهم يدوياً عبر الجسر. وقد استأجروا حمالين لهذا الغرض، واستغرق نقل الأمتعة وإتمام إجراءات العبور التي فرضتها إدارة الجسر حوالي ثلاث ساعات. هذا المشهد يعكس ضعف البنية التحتية للجسر في تلك المرحلة، ويؤكد محدودية قدرته الاستيعابية، كما يسلّط الضوء على المعاناة اليومية للمسافرين، لاسيما في ظلّ الإجراءات البيروقراطية والإدارية المرهقة التي كانت تفرضها السلطة العثمانية على المعابر الحيوية^(٢).

أكد هذه الاجراءات عند جسر المسيّب، وعدم عبور العربات عليه، الرخّالة محمّد حسين تقوي (١٩٢٠)، إذ ذكر بأنّه بعد أن استأجرنا عربة من أحد شركات النقل في الكاظمية، وعندما وصلنا جسر المسيّب، توقّفت العرب وأمرنا بالنزول منها مع امتعتنا، والانتقال إلى الضفة الأخرى، وركوب عربة ثانية، واستغرق الوقت بنقل امتعتنا مدّة ساعتين ونصف^(٣).

(١) حسين خان مهاجراني، سفرنامه عتبات، جاب أول، مؤسّسة فرهنگي هنري، تهران، ١٣٩٧ش، ص ١٢٦.

(٢) أحمد هدايتي، سفرنامه حج، به كوشش، علي قاضي عسكر، جاب أول، نشر مشعر، تهران، ١٤٠٠ش، ص ١٩٣.

(٣) محمّد حسين تقوي قزويني، سفرنامه عتبات هند وحج، تحقيق وتصحيح: محمّد علي باقر =

وبعد الاحتلال البريطاني للعراق في أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، لم تُسجَل تعيُّرات جوهرية في الإجراءات المتبَّعة على جسر المسيب مقارنة بما كان معمولاً به في العهد العثماني، إذ يشير الرَّحالة عين السلطنة في عام ١٩٢١ إلى أنه خلال رحلته من بغداد إلى كربلاء، وصل إلى مدينة المسيب التي يخترقها نهر الفرات، واصفاً مياه النهر بأنَّها سريعة الجريان، لدرجة أن من يطيل النظر إليها قد يُصاب بالدوار، وأوضح أنَّ الجسر المشيَّد على النهر، المعروف بجسر المسيب، كان يخضع لرقابة مشدَّدة من قبل موظَّفين مخوَّلين من السلطنة البريطانيَّة، ترافقهم قوَّة صغيرة من الجنود الهنود، حيث لا يُسمح لأيِّ شخص بعبور الجسر من دون دفع رسم عبور قدره روبيَّة هندية واحدة. وقد لاحظ الرَّحالة وجود تجمُّع كبير من الناس ينتظرون السماح لهم بالعبور، ممَّا يعكس استمرار الإجراءات البيروقراطية المشدَّدة على الجسر حتَّى بعد الانتقال من الحكم العثماني إلى البريطاني^(١).



=زاده، جاب أول، مؤسَّسة فرهنكي هنري، تهران، ١٣٩٣ش، ص ٩٣.

(١) قهرمان ميرزا سالور عين السلطنة، روزنامه خاطرات عين السلطنة، به كوشش، مسعود سالور وايرج افشار، جلد ششم، جاب أول، ناشر اساطير، تهران، ١٣٧٨ش، ص ٦٥٤٨.

المحور الثاني

الأوضاع الاقتصادية لمدينة الحلّة كما رواها الرحّالة الإيرانيون

تميّزت مدينة الحلّة وتوابعها عبر العصور بخصوبة تربتها، وغزارة ثرواتها الطبيعيّة، الأمر الذي منحها مكانة اقتصادية مرموقة لم تغب عن أنظار الرحّالة الذين زاروها، إذ رصدوا في مدوّناتهم أبرز الملامح الاقتصاديّة التي أثار انتباههم. وقد أجمع أغلب الرحّالة على أنّ الحلّة مدينة زراعيّة بالدرجة الأولى، تعتمد بشكل أساسي على مياه نهر الفرات الذي يشطرها إلى شطرين.

وفي هذا السياق، يشير الرحّالة أبو طالب خان (١٨٠٣) إلى أنّ مدينة الحلّة تقع على ضفاف نهر الفرات، الذي يقسمها إلى قسمين، ويسكن الباشا وكبار الموظّفين في القسم الغربيّ القريب من الصحراء، اذ يملكون على ضفتي النهر عدداً كبيراً من البساتين والقصور، ممّا يعكس الرخاء الاقتصاديّ والثراء الزراعيّ الذي امتازت به المنطقة^(١)، ما يؤكّد ذلك كثرة البساتين في المدينة القريبة من ضفاف نهر الفرات، ويدلّ على أنّ الأراضي الخصبة يستحوذ عليها كبار مسؤولي السلطة الحاكمة دون غيرهم من عامّة الناس، وكثرة بساتين المدينة أكّدها الرحّالة المنشيء البغداديّ (١٨٢٢)، إذ بيّن إلى أنّ مدينة الحلّة تقع على نهر الفرات، وتنتشر على ضفافه ولمسافات بعيدة عنه بساتين النخيل الكبيرة^(٢).

(١) أبو طالب خان، المصدر السابق، ص ٢٧٥.

(٢) المنشيء البغداديّ، المصدر السابق، ص ٩٠.

ويوضح الرحالة رضا قلي ميرزا (١٨٣٦) إلى أن مدينة الحلة تتميز بجمال طبيعي فريد، يزداد تألقاً بمرور نهر الفرات في وسطها، إذ يقسم المدينة إلى قسمين، ويغلب على جانبي النهر انتشار بساتين النخيل الكثيفة، وغابات متنوعة، كما تنتشر في المنطقة أشجار الفاكهة المختلفة، مثل الليمون، والرمان، والتين، والعنب، بالإضافة إلى زراعة الخضروات، وتمتد هذه المساحات الزراعية على طول ضفاف النهر لمسافات واسعة. كما يعتمد سكان الحلة إلى جانب ذلك على زراعة الحبوب، كالحنطة والشعير، وبرغم ذلك، يعاني الفلاحون من ضغوط السلطة العثمانية التي تفرض عليهم ضرائب مرتفعة على منتجاتهم وممتلكاتهم، مما يؤثر على نشاطهم الزراعي^(١).

وأشار الرحالة سيف الدولة (١٨٦٣)، إلى أن مدينة الحلة بلدة زراعية، وترتبتها صالحة للزراعة، وفيها كل أنواع المزروعات، وتكثر فيها بساتين النخيل في كل أنجهاها، إلا أن أشجار الحمضيات فيها قليلة^(٢).

إلى جانب الزراعة، اعتمد أهالي مدينة الحلة على تربية الحيوانات الداجنة، إذ يشير الرحالة رضا قلي ميرزا (١٨٣٦) إلى أن معظم مناطق الحلة تشتهر بتربية الجاموس الضخم والكبير الحجم، لاسيما في المناطق القريبة من ضفاف نهر الفرات. كما تنتشر في المدينة قطعان الأبقار والأغنام. وبالرغم من أهمية هذه الماشية، لم يهتم السكان كثيراً بتوفير أماكن محمية لحيواناتهم، إذ تركت مكشوفة في العراء، معرضة بذلك لخطر الحيوانات المفترسة، مثل الذئاب. وقد تحدث البعض عن فقدان الرعاة لمجموعات من أغنامهم بين الحين والآخر؛ بسبب هجمات هذه الحيوانات^(٣).

(١) رضا قلي ميرزا، همانجا، ص ١٧٦.

(٢) سيف الدولة، همانجا، ص ٢٣١.

(٣) رضا قلي ميرزا، همانجا، ص ١٧٧-١٧٨.

إنّ كثرة حيوانات الجاموس في مدينة الحلّة تؤكّدها أيضًا ملاحظات الرخّالة عبد العلي خان (١٨٥٦)، الذي بيّن أنّ قرية الكفل تشتهر بوفرة الجاموس التي تُرى جاثية في نهر الفرات على شكل مجموعات. ويروي كيف تعرّض أحد الأشخاص لهجوم من هذه الحيوانات بعد أن لاحظت الجاموس أنّه يرتدي نوعًا من الجلد الكابلي، ولم يتمكّن من النجاة من الهجوم إلّا بعد تدخّل أحد الفلّاحين، فأبعد الجاموس عنه^(١).

أمّا الرخّالة ناصر الدين شاه (١٨٧٠) فقد ذكر أنّ قبيلة شمّر تسكن بالقرب من مرقد أولاد مسلم بن عقيل عليه السلام في منطقة المسيّب، وأنّ سكّان هذه القبيلة يعتنون بتربية الأبقار والأغنام والدجاج والخيول والحمير والكلاب، وأدّت هذه الحيوانات دورًا مهمًا في تعزيز الوضع الاقتصاديّ لأهل القبيلة، حيث ينتجون الزبد (السمن الحيواني) بكثرة، إضافة إلى لحوم الحيوانات، وبيض الدجاج. وأنّ بعض هذه الحيوانات تُستخدَم في أعمال الزراعة والنقل اليوميّة، ممّا يساهم في دعم نشاطاتهم الاقتصاديّة^(٢).

شكّلت مدينة الحلّة محطة رئيسة مهمّة على الطريق النهريّ الذي يمرّ عبر نهر الفرات، ويربط بين المناطق والمدن الجنوبيّة بمدينة بغداد والمناطق الأخرى، وقد تعاضم اقتصاد المدينة بفعل حركة السّلع والبضائع التي تمرّ عبرها، وما تصدره إلى الخارج، الأمر الذي وفرّ فرص عمل مستمرة لمعظم أهالي المدينة، وانعكس بشكلٍ إيجابيّ على أوضاعهم الاقتصاديّة.

وفي هذا الصدد، أشار الرخّالة الإيرانيّون إلى أهميّة هذا الطريق النهريّ، إذ ذكر الرخّالة المنشيء البغداديّ (١٨٢٢) أنّ الطريق بين بغداد والبصرة عبر نهر الفرات أفضل بكثير من الطرق البريّة، وأقصر زمنًا مقارنةً بالطريق النهريّ عبر نهر دجلة،

(١) عبد العلي خان (أديب الملك)، هانجا، ص ٢٠٠.

(٢) ناصر الدين شاه، المصدر السابق، ص ١٥٢.

ووفقاً لوصفه، فإن المسافرين يقطعون عبر الطريق البري مسافة نحو ستّة عشر فرسخاً بين بغداد والحلّة. ويتجمع المسافرون القادمون من بغداد والبصرة مع بضائعهم في مدينة الحلّة، ممّا يسبّب نشاطاً اقتصادياً كبيراً فيها. ومن الحلّة، يستقلّ المسافرون المراكب التي تصل في يومين أو ثلاثة إلى ملوم، ومنها يستقلّون مركباً أصغر يتّجه إلى السماوة، التي تصلها الرحلة خلال ثلاثة أيّام، وبعدها يتّجه المركب صوب سوق الشيوخ، التي تصلها الرحلة في مدّة ثلاثة أو أربعة أيّام، ومن ثمّ يتّجه المركب إلى قرية القرنة، التي تقع عند التقاء نهر دجلة بنهر الفرات، إذ يصيران نهراً واحداً يُعرّف بشطّ العرب. وتستغرق الرحلة من القرنة إلى البصرة عبر شطّ العرب يوماً واحداً، وبذلك، تستغرق الرحلة من الحلّة إلى البصرة حوالي ثلاثة عشر يوماً. أمّا رحلة العودة من البصرة إلى بغداد عبر نهر الفرات فتستغرق خمسة عشر يوماً من البصرة إلى الحلّة، ومن الحلّة إلى بغداد عبر الطريق البري يومين، ليكون مجموع الرحلة سبعة عشر يوماً. وهذه المدّة أقلّ بكثير من الزمن الذي تستغرقه الرحلات بين البصرة وبغداد عبر نهر دجلة، والذي يتراوح بين ثلاثين إلى خمسين يوماً^(١).

(١) المنشئء البغداديّ، المصدر السابق، ص ٩٤.

المحور الثالث

وصف الرحّالة الإيرانيين للمراقد والمزارات المقدّسة في مدينة الحلّة

حظيت المزارات والمراقد المقدّسة في المدن العراقية باهتمام بالغ عند الجغرافيين والمؤرّخين والرحّالة الذين زاروها، فدوّنوا مشاهداتهم بكلّ دقّة، مستعرضين ما حوته من فنّ معماريّ مميّز، وجوانب حضاريّة وتاريخيّة قيّمة. وكان هدف هؤلاء الوقوف على أصل هذه المزارات والمراقد، ومعرفة الحقبة التاريخيّة التي تنتمي إليها؛ لفهم أهمّيّتها ودورها في التاريخ والتراث.

أولاً: مرقد ذي الكفل ومقامه

يقع مرقد ذي الكفل ومقامه في الحلّة، إذ أُطلق اسم الكفل على المدينة التي تحتضن هذا المرقد، تقديرًا وتيمُّنًا باسمه. تقع المدينة بين الحلّة والنجف، إذ تبعد عن النجف نحو خمسة وعشرين كيلومترًا، فيما تبعد عن الحلّة بحوالي اثنين وثلاثين كيلومترًا، ممّا يجعلها موقعًا وسطيًّا هامًّا بين هاتين المدينتين التاريخيّتين^(١).

يعود تأسيس مدينة ذي الكفل إلى عهد الدولة البابليّة المتأخّرة (١٠٤-٥٦٢ ق.م)، في زمن حكم الملك نبوخذنصر الثاني، الذي امتدّ نفوذه إلى مناطق البحر الأبيض المتوسّط، بعد غزوه لمدينة القدس عام (٥٩٧ ق.م). أسر نبوخذنصر نحو ثلاثة

(١) خديجة حسن عليّ القصير، ذو الكفل بين النصوص الدينيّة والروايات التاريخيّة، رسالة ماجستير، كليّة الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠١٢، ص ١٣٢.

آلاف أسير، كان من بينهم النبي حزقيال المعروف أيضًا بـ(ذي الكفل)، وقد توفي النبي حزقيال ودفن في المدينة التي حملت اسمه، والتي كانت تُعرف في السابق باسم (برملاحة)^(١).

شُيِّد على قبر النبي ذي الكفل مبنى وقبة، وجُدِّد البناء عليه بعد تولي السلطان المغولي الإيلخاني أوجايتو محمد خدابنده (١٣٠٣-١٣١٦ م) حكم بغداد. فقد أولى السلطان اهتمامًا خاصًا بمشهد ذي الكفل، فبنى مسجدًا ومنازة كبيرة، وشيّد على القبر قبة ذات تصميم مميّز، إذ يختلف شكلها من الداخل عن الخارج؛ فالداخل نصف كروي، على حين أنّ الخارج مخروطي مقرنص. وخضع المشهد على مرّ الزمن للعديد من أعمال الترميم والإصلاح، التي قام بها أشخاص مهتمّون بالحفاظ عليه. وكذلك حظي المشهد بزيارة العديد من الرحّالة والمؤرّخين والجغرافيين العرب والأجانب، من بينهم الرحّالة الإيرانيون، إذ أشار الرحّالة أبو طالب خان (١٨٠٣) إلى زيارته لقبر ذي الكفل بقوله: «بعد قضاء الليل في مدينة الحلة، واصلنا رحلتنا عند تلبّج الصباح، وفي ذلك النهار زرت قبر ذي الكفل.. وموقعه على مسافة قريبة من سور النجف، والقبر قائم في وسط القرية التي يسكنها اليهود»^(٢).

وقبر ذي الكفل يعدّ من المزارات المقدّسة لدى اليهود، وهم يأتون لزيارته من جميع مناطق العالم في كلّ سنة، وهذا ما أشار إليه الرحّالة المنشيء البغداديّ (١٨٢٢)، بقوله: «إنّ ذا الكفل نبيّ من أنبياء بني إسرائيل، وفي كلّ سنة يزوره اليهود من أنحاء عديدة، وهناك قلعة صغيرة ومعبد لليهود وسط البلدة، وفيها بيوت من العرب أخذوها مسكنًا»^(٣).

(١) سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل الحديثة، ط ١، مطبعة جامعة بابل، بابل، ١٩٨٦، ص ٢٤٤.

(٢) أبو طالب خان، المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(٣) المنشيء البغدادي، المصدر السابق، ص ٩١.

مما تقدّم نلاحظ أنّ هناك تناقضًا في تحديد سكّان مدينة ذي الكفل بين الرحّالة أبي طالب، والبغداديّ، على الرغم من قرب زمن الرحلتين، فالأوّل ذكر أنّ كلّ سكّانها من اليهود، ربّما لكثرتهم فيها، على حين ذكر البغداديّ أنّ هناك بيوتًا من العرب يسكنون فيها، وهذا أقرب للصواب، إذ إنّ بيوت العرب تحيط بالمدينة.

أعطى الرحّالة عبد العليّ خان (١٨٥٦) صورةً متكاملةً للمرقد، إذ وصفه بأنّه عبارة عن قلعة مبنية بالطابوق والجصّ، تقع على مرتفع من الأرض، تحيط به بيوت تشرف على النهر، الذي وصفه بأنّه كثير الماء وواسع كالبحر. تسكن هذه البيوت المجاورة حوالي مئتي عائلة من العرب، بالإضافة إلى نحو عشرين شخصًا من اليهود الذين يتولّون إدارة شؤون الصحن، ويأتي اليهود لزيارة المرقد من جميع أنحاء العالم. وفي وصفه لقبر ذي الكفل، أشار إلى وجود صندوق على القبر تتدلّى منه ستائر عليها كتابات باللغة العبريّة. وخلف مرقد ذي الكفل تقع قبور أربعة من الحواريين، كما يوجد قبر لبنت ذي الكفل. وأشار أيضًا إلى تلّة النمرود التي تقع على مسافة قصيرة من المرقد، إذ يوجد في أسفل التلّة مكان يُعرف باسم (مكان النار) التي ألقى فيها النمرود نبيّ الله إبراهيم الخليل عليه السلام ^(١).

وأكد الرحّالة سيف الدولة (١٨٦٣) أنّ مرقد ذي الكفل عبارة عن قلعة صغيرة مبنية بالطابوق، تحيط بها أبنية يقطنها اليهود. يحتوي الموقع على مسجد ومنارة، ويوجد داخل المسجد قبر ذي الكفل. كان المسجد يُدار في السابق من قبل المسلمين، لكنّه أصبح تحت إدارة اليهود قبل عدّة سنوات. وأشار إلى أنّ سكّان المنطقة يتألّفون من العرب، وقليل من اليهود. وذكر أيضًا أنّ الزوّار يتوافدون إلى المرقد مرّة

(١) عبد العليّ خان (أديب الملك)، همانجا، ص ٢٠٠ ٢٠١.

واحدة في السنة، وتحديدًا في أواخر فصل الربيع، إذ تستمرُّ فترة الزيارة حوالي شهرٍ كامل^(١).

في حين أشار الرَّحالة ناصر الدين شاه (١٨٧٠) إلى أنَّ مرقد ذي الكفل يقع بمحاذاة برج النمروود على الجهة الأخرى للنهر، موضِّحًا أنَّ اليهود يسكنون بكثرة بجانب المرقد، وتوجد إلى جانبهم عوائل عديدة من العرب^(٢).

ثانيًا: مرقد أولاد مسلم بن عقيل عليه السلام

يقع مرقد أولاد مسلم بن عقيل بن أبي طالب عليه السلام، وهما محمد وإبراهيم، في ضواحي مدينة المسيب على بُعد نحو ثلاثة كيلومترات إلى الغرب منها، على ضفة نهر الفرات من مدينة الحلة. ويبعد المرقد عن مركز مدينة الحلة حوالي اثنين وأربعين كيلومترًا، وعن مركز مدينة كربلاء حوالي ثلاثين كيلومترًا^(٣).

طرأت على قبر محمد وإبراهيم أولاد مسلم بن عقيل عليه السلام، بناءات متعدّدة من عمارات وقباب، قام بتشييدها السلاطين والولاة والأثرياء، ما جعل المرقد يحظى بمكانة بارزة واهتمام خاص، وقد زاره العديد من الرَّحالة الإيرانيين الذين دوّنوا مشاهداتهم عنه. في هذا السياق، يشير الرَّحالة عبد العليّ خان (١٨٥٦) إلى المرقد الشريف فيقول: «بعد تحرُّكنا من خان مزراقجي بمسافة فرسخ واحد، لوحظت لنا قرب المسيب قباب مرقد محمد وإبراهيم، أولاد مسلم بن عقيل، ويبعد المرقد عن الطريق الرئيس بحوالي

(١) سيف الدولة، همانجا، ص ٢٣٥.

(٢) ناصر الدين شاه، المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٣) عبد الرزاق كمّونة، مشاهد العترة الطاهرة وأعيان الصحابة والتابعين، تقديم: محمد سعيد الطريحي، ط ١، مؤسّسة البلاغ، بيروت، د.ت، ص ٢٤٥، إبراهيم الموسويّ الزنجانيّ، جولة في الأماكن المقدّسة، ط ١، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٠٧.

ثلث فرسخ». وقد أشار عبد العليّ خان إلى المعاناة التي يعاني منها زوّار المرقد؛ بسبب قطع الطرق واللصوص، إذ تحدّث عن القبائل الموجودة في البادية المحيطة بالمرقد، والتي تقوم بنهب وسرقة أموال الزائرين القاصدين. أمّا عن وصفه للمرقد، فقد ذكر أنّه يتكوّن من قبتين مكسوّتين بالقاشانيّ، ويقع القبران الشريفان في بقعة واحدة داخل الصحن الذي وصفه بالصغير، لكنّه يحتوي في وسطه على حديقتين صغيرتين تتوسّطهما عدد من أشجار النخيل. وأشار إلى وجود خان أمام الصحن يجلس فيه عدد من الأشخاص الذين يساعدون الزائرين من خلال توفير الماء لهم، ويكسبون بعض المال مقابل هذه الخدمة^(١).

وذكر الرحالة سيف الدولة (١٨٦٣)، أنّ مرقد أولاد مسلم عليه السلام يقع خارج مدينة المسيّب، على بعد مسير نصف ساعة، وللمرقد قبة وصحن صغير^(٢).

أمّا عن أبعاد الصحن الطوليّة والعرضيّة للمرقد الشريف، فقد أشار الرحالة عضد الملك (١٨٦٧) إلى أنّ مرقد محمّد وإبراهيم، أولاد مسلم بن عقيل عليه السلام، يقع في مدينة المسيّب على الطريق المؤدّي إلى كربلاء، وسط منطقة زراعيّة كثيفة بالبساتين. يحتوي الصحن المبارك على قبة لكلّ من المرقدين، ويبلغ طول الصحن عشرين ذراعاً، وعرضه كذلك، ممّا يجعل مساحة الصحن تقدّر بأربعمائة ذراع مربّعة^(٣).

زار المرقد ناصر الدين شاه (١٨٧٠)، ووصف الصحن والقبتين اللّتين تعلوان المرقدين بأنّهما في حالة خراب، ويحتاجان إلى ترميم وإعادة بناء. وأشار إلى أنّه بسبب

(١) عبد العليّ خان (أديب الملك)، همانجا، ص ١٣١.

(٢) سيف الدولة، همانجا، ص ٢٢٦.

(٣) علي رضا عضد الملك، سفرنامه عضد الملك به عتبات، به كوشش: حسن مرسلوند، جاب أول، مؤسّسة بزوهش ومطالعات فرهنگ، كرج، ١٣٧٠ ش، ص ١٣٦.

إهمال القائمين على المكان، وعدم التنظيف اليومي للصحن، كانت هناك رائحة رطوبة وعفن تنبعث من جوانب الصحن. ووصف الأضرحة، مشيراً إلى أن أحد المرقدين كان محاطاً بضريح مصنوع من البرونز، على حين لم يكن للمرقد الآخر ضريح، وأفاد بأنه أصدر أوامره بإعادة ترميم المرقدين والاهتمام بهما^(١).

وأكد الرحّالة محمود عبد الكريم (١٨٨٧) أن مرقد أولاد مسلم بن عقيل عليه السلام يقع في منطقة زراعية كثيفة، تنتشر فيها أشجار النخيل بكثرة. وأشار إلى أن للمرقد صحناً فسيحاً، تعلوه قبتان مكسوتان بالكاشي، ممّا يضفي على المكان طابعاً معمارياً مميّزاً^(٢).

في حين وصف الرحّالة إبراهيم كازروني (١٨٩٩) المرقد، فأشار إلى أن مدخله وجدران الضريح كلها مغلّفة بالكاشي، وتعلو المرقدين قبة صغيرة، ويحيط بكلّ قبر ضريح مصنوع من البرونز، والمرقدان يقعان في غرفتين، وتعدّان غرفة واحدة^(٣).

واقصر وصف الرحّالة الإيرانيين للمزارات الدينية في مدينة الحلة على تلك الواقعة على الطرق المؤدية إلى العتبات المقدّسة في كربلاء المقدّسة والنجف الأشرف، دون التوسّع في زيارة أو وصف المراقد المنتشرة داخل مدينة الحلة نفسها، ويُعزى هذا الاقتصار إلى عدّة عوامل، من أبرزها تعدّد الوصول إلى تلك المراقد؛ بسبب انتشارها في نواح متعدّدة من جغرافية المدينة، فضلاً عن غياب الأمن في الطرق المؤدية إليها. ومن تتبّع كتابات الرحّالة الإيرانيين نلاحظ أن مساراتهم كانت متكرّرة وثابتة تقريباً، إذ سلكوا طريقاً واحداً أو طريقين على الأكثر، من دون تغيير يُذكر.

(١) ناصر الدين شاه، المصدر السابق، ص ١٥٢.

(٢) عبد المجيد محمود عبد الكريم، همانجا، ص ٧٠.

(٣) إبراهيم كازروني، همانجا، ص ٢١٩.

الخاتمة

شكّلت كتب الرحالة أهميّة كبيرة، إذ تُعدُّ من المصادر الرئيسة في كتابة التاريخ، لما تحويه من معلومات تاريخيّة ووصف جغرافيٍّ وعمرائيٍّ يعكس واقع المدن التي زاروها، ويُبرز أوضاعها في فترات مختلفة. ومن دراسة كتب الرحالة الإيرانيين الذين زاروا مدينة الحلة خلال المدّة من (١٧٩٦-١٩٢٥)، أمكن التوصل إلى عدد من النتائج المهمّة، منها:

١. أورد الرحالة الإيرانيون معلومات غنيّة ومتنوّعة تتعلّق بالجوانب الاجتماعيّة والاقتصاديّة والعمرائيّة للمدينة، في مراحل مختلفة من تاريخها، ما يجعلها مصدرًا مهمًّا يمكن أن يُعتمد عليه في تدوين تاريخ الحلة.

٢. أجمعت روايات الرحالة على سمات إيجابيّة لسكّان المدينة، مثل حسن الأخلاق، والكرم، وحسن التعامل، ولاحظوا التعدّدية الدينيّة والمذهبيّة والقوميّة لسكّان المدينة، مع غلبة واضحة للعرب المسلمين. ولم يُسجّل الرحالة أي مظاهر للنزاع أو التمييز بين السكّان، ممّا يدلُّ على تمتّعهم بحريّة دينيّة وفكريّة ملحوظة.

٣. أوضحت كتابات الرحالة الأهميّة الإستراتيجيّة للحلة بفضل موقعها الجغرافيّ في وسط العراق، إذ تربط بين مدنه الشماليّة والجنوبيّة، وكانت من المحطّات البارزة على الطرق التجارية، لاسيّما الطريق النهريّ على نهر الفرات.

٤. أشار أغلب الرحّالة إلى الأهمية الاقتصادية للمدينة، ولاسيما في مجال الزراعة، إذ اتفقوا على خصوبة تربتها ووفرة مياهها، ممّا جعلها من أخصب المناطق الزراعية في العراق آنذاك.

٥. قدّم معظم الرحّالة الإيرانيين وصفاً مفصّلاً لمركد أولاد مسلم بن عقيل عليه السلام، ومركد نبيّ الله ذي الكفل عليه السلام، من دون التطرّق إلى سائر المراقد والمزارات المنتشرة في أرجاء المدينة، ويُحتمل أنّ السبب في ذلك هو وقوع هذين الموقعين على الطرق الرئيسة التي تربط الحلة بكربلاء والنجف الأشرف.

٦. يُؤخذ على هؤلاء الرحّالة أنّهم لم يتناولوا وصف أزياء سكّان المدينة، أو المناسبات الاجتماعية، كالأفراح والأحزان، ولم يقدّموا معلومات كافية عن المؤسسات التعليمية، سواء كانت دينية أو حكومية، وهو ما يشكّل نقصاً في توثيق بعض الجوانب الثقافية للمدينة.

المصادر

أولاً: كتب الرحلات الفارسيّة

- أبو طالب بن محمّد خان، رحلة أبي طالب خان إلى العراق وأوروبا، ترجمة: مصطفى جواد، ط ١، دار الوراق للنشر، بغداد، ٢٠١١ م.
- أحمد هدايتي، سفرنامه حج، به كوشش، عليّ قاضي عسكر، جاب أول، نشر مشعر، تهران، ١٤٠٠ ش.
- حاجيه خانم علوية كرمانى، روزنامه سفر حج عتبات عاليات، به كوشش، رسول جعفریان، جاب أول، نشر مؤرخ، قم، ١٣٨٤ ش.
- حسين خان مهاجراني، سفر نامه عتبات، جاب أول، مؤسّسة فرهنگي هنري، تهران، ١٣٩٧ ش.
- رضا قلي ميرزا، سفر نامه رضا قلي ميرزا نواه فتحعلي شاه، جاب أول، انتشارات دانشگاه تهران، تهران، ١٣٤٦ ش.
- عبد الحسين خان افشار الرومي، سفر نامه مكة، به كوشش، رسول جعفریان، جاب أول، نشر علم، تهران، ١٣٨٦ ش.
- عبد العلي خان (أديب الملك)، سفر نامه أديب الملك (دليل الزائرين)، تصحيح: مسعود كلزاري، جاب أول، انتشارات دادجو، تهران، ١٣٦٦ ش.

- عبد المجيد محمود عبد الكريم، سفر نامه مكة وعتبات، به كوشش، سعيد حسيني، جاب أول، نشر مشعر، تهران، ۱۳۹۹ ش.
- العراق في مشاهدات ناصر الدين شاه، ترجمة وتعليق: محمد الشيخ هادي الأسدي، ط ۱، مؤسسه آفاق، بغداد، ۲۰۱۱ م.
- علي رضا عضد الملك، سفر نامه عضد الملك به عتبات، به كوشش: حسن مرسلوند، جاب أول، مؤسسه بزوهش ومطالعات فرهنگ، كرج، ۱۳۷۰ ش.
- فخر الدين جزائري، سفر نامه مكة شام مصر - عراق (سفر نامه هاي حج قاجاري)، به كوشش: رسول جعفريان، جلد هشتم، جاب أول، نشر علم، تهران، ۱۲۸۹ ش.
- قهرمان ميرزا سالور عين السلطنة، روزنامه خاطرات عين السلطنة، به كوشش، مسعود سالور وايرج افشار، جلد ششم، جاب أول، ناشر اساطير، تهران، ۱۳۷۸ ش.
- كياوس ميرزا، سفر نامه مكة، به كوشش، رسول جعفريان، جاب أول، نشر علم، تهران، ۱۳۹۴ ش.
- محمد بن السيد أحمد الحسيني المنشيء البغدادي، رحلة المنشيء البغدادي، ترجمة: عباس العزاوي، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ۱۹۴۸ م.
- محمد حسين تقوي قزويني، سفر نامه عتبات هند وحج، تحقيق وتصحيح: محمد علي باقر زاده، جاب أول، مؤسسه فرهنگي هنري، تهران، ۱۳۹۳ ش.

- محمد حسين خان هروي، سفرنامه خان افغان (بنج سفرنامه يا سفر به إقليم عشق)، تحقيق وتصحيح: خليل طاووس، جاب أول، نشر مجمع ذخائر اسلامي، قم، ١٣٩٣ ش.
- محمد سلطان سيف الدولة، سفرنامه سيف الدولة (سفرنامه مكة)، تصحيح وتحشية: علي أكبر خدابست، جاب أول، جابخانه معراج، تهران، ١٣٨٩ ش.
- محمد علي بير زاده، سفرنامه حاجي بير زاده، به كوشش: حافظ فرما نفر مائيان، جلد دوم، جاب أول، انتشارات دانشگاه تهران، تهران، ١٣٤٣ ش.
- مله إبراهيم كازروني، سفرنامه مكة (سفرنامه هاي حج قاجاري)، به كوشش: رسول جعفريان، جلد ششتم، جاب أول، نشر علم، تهران، ١٣٨٩ ش.
- ناشناس مؤلف، سفرنامه عتبات وحج سال ١٣١٧ ق (سفرنامه هاي حج قاجاري)، به كوشش: رسول جعفريان، جلد ششتم، جاب أول، نشر علم، تهران، ١٣٨٩ ش.

ثانياً: الرسائل والأطاريح

- عمران بن محمد الأحمّد، أدبيّة الرحلة عند العبوديّ رحلاته إلى البرازيل نموذجاً، أطروحة دكتوراه، كليّة اللغة العربيّة والدراسات الاجتماعيّة، جامعة القصيم، السعوديّة، ٢٠١٥ م.
- خديجة حسن عليّ القصير، ذو الكفل بين النصوص الدينيّة والروايات التاريخيّة، رسالة ماجستير، كليّة الآداب، جامعة الكوفة، ٢٠١٢ م.

ثالثاً: الكتب العربيّة والمعرّبة

- إبراهيم الموسويّ الزنجانيّ، جولة في الأماكن المقدّسة، ط ١، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٥ م.
- بطرس البستانيّ، دائرة المعارف، مجلّد (٨)، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٨٤ م.
- جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، ج ١١، ط ٣، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤ م.
- حسني محمود حسين، أدب الرّحالة عند العرب، ط ٢، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣ م.
- سامي سعيد الأحمد، سلالة بابل الحديثة، ط ١، مطبعة جامعة بابل، بابل، ١٩٨٦ م.
- سهيل قاشا، الموصل في مذكّرات الرّحالة الأجنبيّين خلال الحكم العثمانيّ، ط ١، دار الورّاق للنشر، بغداد، ٢٠٠٩ م.
- صلاح الدين عليّ الشاميّ، الرحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافيّ والدراسة الميدانيّة، ط ١، منشأة المعارف، الإسكندريّة، ١٩٩٩ م.
- عبد الرزّاق كمّونة، مشاهد العترة الطاهرة وأعيان الصحابة والتابعين، تقديم: محمّد سعيد الطريحيّ، ط ١، مؤسّسة البلاغ، بيروت، د.ت.
- علاء الدين أحمد العانيّ، المشاهد ذات القباب المخروطيّة في العراق، ط ١، دار الحرّيّة، بغداد، ١٩٨٢ م.

الرحلة ونواحيها في انطباعات الرحالة الإيرانيين (١٧٩٦-
١٩٢٥): قراءة في المدونات والرحلات

- عليّ عفيفي عليّ غازي، كتابات الرحالة حول مجتمع البدو في العراق والجزيرة العربية، ط١، دار قنديل، دبي، ٢٠٢٠م.
- عليّ كامل حمزة، خانات الحلة في العهد العثماني، ط١، مطبعة الصادق، بابل، ٢٠١١م.
- كارستن نيبور، رحلة نيبور الكاملة إلى العراق، ترجمة: سعاد هادي العمري وآخرون، تعليق: سالم الألوسي، ط١، دار الوراق للنشر، بغداد، ٢٠١٢م.
- محمد الدين محمد بن يقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسّسة الرسالة، ط٦، دمشق، ١٩٩٨م.
- مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والآدب، ط٢، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م.
- محمد التوزاني، الرحلة الحجازية، ط١، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٩٧م.
- محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجري، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٦م.
- منصور الحازمي، بلادنا في عيون الرحالة العرب، ط١، مكتبة الأمانة العامة للاحتفالات في الرياض، الرياض، ١٩٩٩م.